﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين عطاءِ اللـه لعيسى ابـن مـريـم، ومـسـاءلـتِـه عـن تمحيض العبوديّة لربّه

لمّا كان الكلام قبل هذه الآية، في تَعداد النِّعم الَّتي أنعَم بها ﷻ على عيسى ﷺ، وفي إلهامه للحواريّين الإيمانَ به وبرسوله، وفي طلب الحواريّين مِن عيسى إنزالَ مائدة منَ السَّماء، ثمَّ طلبِ عيسى مِن ربِّه إجابةَ مطلبهم، وإخبارِ الله تعالى بأنَّه أجابهم إلى ما طلبوا، أعقبَ الكلامَ في هذه الآية سؤالَ عيسى ﷺ على مَرأى مِن قومه؛ توبيخًا وتقريعًا لهم على افترائهم، وإجابةَ عيسى ﷺ عن ذلك بالتَّبرُّؤِ مِن ذلك الذَّنب العَظيم الَّذي اقترفوه بعده، وهو القولُ بالتَّثليث[1]، إذ أقرَّ لله بالألوهيّة، والالتزامِ بشرعه القويم، وأنّه لا يستطيع أن يكون إلّا عبدًا لله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾: الاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِنَ الأخذِ، وهو: الاقتِناءُ. يُقال: أخَذَ الشَّيءَ، يأخُذُهُ، أخذًا؛ أي: اقتَناهُ. واتَّخَذَ الماشيَةَ لِلولادَةِ واللَّبَنِ والصّوفِ؛ أي: اقتَناها لِذلك. ويُطلَقُ على الاكتِسابِ. يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالًا، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ. ومِن مَعانيهِ أيضًا: الاستِعمالُ، وصُنعُ الشَّيءِ[2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/61.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن الأثير، النّهاية: (أخذ).

والمعنى هنا: الجَعلُ والتّصيير؛ أي: اجعلوني وصيِّروني.

2) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ. يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا وسُبحانًا؛ أي: نَزَّهتُهُ وبَرَّأتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقصٍ. وأَصلُه مِنَ السُّبْحِ، وهو: البُعدُ. والتَّسبيحُ: التَّبعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحتُ في الأَرضِ؛ أي: أَبعَدتُ فيها. ويأتي بمعنى قَولِ سُبحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ؛ أي: قال: سُبحانَ اللّهِ. ويُطلَقُ التَّسبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعبادةِ[1]، قال زيد بن عمرو بن نفيل، أو ورقة بن نوفل:

سُبحانَ ذي العَرشِ سُبحاناً يَدومُ لَهُ *** رَبُّ البَريَّةِ فَردٌ واحِدٌ صَمَدُ

سُبحانَهُ ثُمَّ سُبحاناً يَعودُ لَهُ *** وقَبلَنا سَبَّحَ الجوديُّ والجُمُدُ[2]

والمعنى هنا: تنزيهًا لك وتقديسًا.

3) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: جَمعٌ مُفرده غَيب، والغَيبُ: المَستورُ والمحجوبُ، يُقالُ: غابَتِ الشَّمسُ، تَغيبُ، غَيْبَة وغَيبوبَة: إذا استَتَرَت وحجبت. والغَيبُ أيضًا: المخفيُّ، وضِدُّه: الشَّهادةُ والحضور[3]، و"كلُّ ما غابَ عنِ العُيونِ وكانَ مُحصَّلًا في القُلوب فهو غَيبٌ"[4]، مصدرٌ بمعنى الفاعل.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تقريعُ النَّصارى بما أحدَثوه منَ الكذب على الله

يُذكِّرُ اللّهُ تعالى بقولِه لعيسى عليه السلام يَومَ القيامة بحَضرةِ النَّصارى؛ توبيخًا لهم وتقريعًا: يا عيسى ابنَ مريم، هل أنتَ أَمَرْتَ النّاسَ أن يَجعلوك وأمَّك معبودَينِ، تُعبَدانِ مِن دون اللّهِ تعالى؟ فيُجيبُ عيسى عليه السلام بغاية الأدب: أُنزِّهُك يا ربِّ، عن كلِّ ما لا يَليق بك؛ لا يَنبغي لي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (سبح).

(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/51.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غيب).

(4) الثّعالبيّ، فقه اللّغة، ص: 25.

أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ، إنْ كنتُ قلتُه فأنت تعلمُه؛ فإنَّه لا يَخفى عليك شيءٌ، فأنت تَعلمُ ما أُضمِرُه في نفسي، ولا أعلمُ ما تُخفيه في نفسِك؛ إنَّك أنتَ علّامُ الغيوب، ولايخفى عليك شيء في الأرض ولا في السّماء؛ لأنّك وحدك صاحبُ العلم المحيط، بكلِّ خفيٍّ وغائب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

بَيَانُ كَـلَامِ اللهِ تَـعَـالَى لِعِيسَى عليه السلام يَوْمَ القِيَامَةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوفٌ علَى قَولِهِ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ [المائدة: 110]؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْنِ، وذلكَ لاشْتِراكِهما في الخَبَريَّةِ، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ - (قالَ) - والمُسْنَدِ إليهِ - (اللّهُ)، وبينَهُما مناسبَةٌ وهي أنَّ كِلَيْهِما اشتمَلَ على كلامِ اللّهِ سُبحانَهُ لعيسى ابنِ مريمَ يومَ القيامَةِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي عنِ المستقبل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ الزَّمانيّةُ للفعل الماضي، لها أهمّيّتُها في سياق الآية

جاء التَّعبيرُ عنِ المستقبل بلفظ الماضي (قال)؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوعه، ودَلالَةً عَلى كَونِ الأمرِ وثُبوتِهِ، ونلحظُ هنا أنَّ الفعل يكتسبُ دلالتَه الزَّمنيّة منَ السِّياق الوارد فيه، لا مِن بنيته الصَّرفيّة فحسب، وغالبًا ما يكون وراء تحوّلها ماضيًا ومستقبلًا معنًى بلاغيٌّ[2]، وهذا السّياق، يورد فيه اللّه ما سوف يقع مِن مساءلة يوم القيامة، وماذا سيكون الجواب؟ وهي إحاطةٌ كلّيّة بالغيب، لا يقدر عليها غيرُ اللّه ﷻ.

دِلَالَةُ إِيجَازِ الحَذْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ حَذْفٌ بِإِضْمارِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 169.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262، والقزوينيّ، الإيضاح: 2/96، والإسفراييني، الأطول، ص: 1426، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/90.

فِعْلٍ، والتَّقديرُ: (اذْكُرْ)، والمَعْنَى: اذْكُرْ للنّاسِ إذْ قالَ اللهُ سُبحانَهُ يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ[1]؛ أي: إذْ يَقولُ.

تَجَدُّدُ التَّذْكِيرِ بِتَحْقِيقِ الأُلُوهِيَّةِ وَنَفْيِ الشَّرِيكِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ

فَفي الجملَةِ حذفٌ للفِعْلِ مع فاعِلِه، وفي تقديرِ هذا الفِعْلِ - (اذكُرْ) - إيماءٌ إلَى تجدُّدِ هذا التَّذْكيرِ؛ لِما تضمَّنَهُ من تحقيق الأُلوهيَّةِ ونفي الشَّريكِ عن اللهِ ﷻ.

دِلَالَةُ ﴿وَإِذْ﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ؛ فَهُوَ مُحَقَّقُ الوُقُوعِ

(إذْ) في الأصلِ ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، وتَرِدُ دالَّةً على المُسْتَقْبَلِ، كالواردَةِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: 70 - 71]، و(إذْ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يجوزُ أن تَكونَ للماضي، ولكنَّها استُعْمِلَتْ للحدَثِ المُسْتَقْبَلِ إيماءً إلى تحقُّقِ وُقوعِهِ، ولذا جيءَ بَعْدَها بالفِعْلِ ماضيًا - (قالَ) - ودِلالتُهُ مستقبَليّةٌ.

ويَجوزُ أن تَكونَ ﴿وَإِذْ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ مُسْتَعْمَلَةً في معْنَى الاستِقْبالِ، والأَوَّلُ أظْهَرُ؛ إبْقاءً لـ (إذْ) على أصْلِ دِلالَتِها.

سرُّ إظهارِ اسمِ اللهِ تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

إقامةُ الظَّاهِرِ مقامَ المُضمَرِ، غايةٌ بلاغيّةٌ مفيدةٌ في الدّلالة

أظهر هاهنا اسمَ اللهِ تعالى في مقامِ الإضمار، إذ سبق ذِكره في الآية السّابقة، مع إمكانِ الإضمار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وكان ممكنًا أن يقول: (وإذ قالَ: يا عيسى ابنَ مَريَمَ)؛ وذلك للمُبالغةِ، وإدخالِ الخوف، وتربيةِ المهابةِ، إذ إعادة ذِكر الاسم هنا تلفت النَّظر إلى تجدّدِ الموقفِ، وبيانِ خطرِ المشهد، والّذي يملك هذا هو الحقُّ ﷻ وحده، ولذلك يعلّمنا القرآن شرف الصّدق في الكلمة، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/100.

ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 23 - 24]، وعلى الإنسان أن يحترم قدرتَه المحدودةَ، وأن يتذكّر دائمًا قدرةَ الحقّ ﷻ عليه[1]، ولذلك ذكر اسمَه الجليل.

سرُّ استعمال أداة نداء البعيد (يا)، في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى﴾:

نـــداءُ الـحـقِّ ﷻ، فـيـضٌ مـنَ الـتَّـكـريـم والتَّنبيه، لكلّ عقلٍ نبيهٍ

للسّائل أن يَسأل لماذا استعملَ النِّداء بـ (يا) لنداء البعيد، واللّه ﷻ أَقربُ إلى عِباده من حَبل الوريد؟ الجواب: لعلَّ ذلكَ يرجع إلى عِظم هذه الأمور وأهمّيّتِها، فعَدَل عن نداءِ القريبِ إلى نداءِ البعيدِ؛ تحقيقًا للدَّلالات الآتية: لتنبيه المُخاطَب، ولفتِ نظره إلى هذا الأمر المهمِّ، ولعُلوِّ مكانة المُخاطِب المُنادي، والإشعارِ ببُعد منزلته؛ تنزيلًا للبُعد المعنويّ منزلةَ البُعد المكانيّ[2]، علاوةً على إظهار بشريَّة عيسى ﷺ لمَن ادَّعى بأنَّه إلهٌ، وذلك ما لا يقبله عقل، ولا إنصاف.

إيثارُ ذِكر الكُنية في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

تأكيدُ حقيقةِ بشريَّةِ عيسى ﷺ

إيثارُ ذِكر الكنية ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ لاقتضاء المقام، وتأكيدِ بشريَّة عيسى ﷺ؛ لأنَّه مقام ادِّعاء النَّصارى أُلوهيَّةَ عيسى وأمِّه[3]، وهذا المذكور "صورة للمجاوبة الّتي تكون يوم القيامة بين الرّسل، وأقوامِهم، ومَن بعثوا إليهم بشكل عامّ، وخصّ عيسى ﷺ في هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنّه كان أكثرَ الرّسل الّذين افْتُرِيَ على شخصهم النّبويّ الكريم، إذِ ادّعوا عليه الألوهيّةَ، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارة إلى الولادة الطّبيعيّة الّتي تنفي أن يكون إلهًا، أو ابنَ إله، أو فيه عنصرُ الألوهيّة بأيّ وضع منَ الأوضاع؛ لأنّ الألوهيّة والبشريّة نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشرُ فيه ألوهيّةٌ، ولا الإله فيه بشريّةٌ"[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3469.
(2) فيّود، من بلاغة النّظم القرآنّي، ص: 234.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2405.

دلالةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾:

مـن وسـائـلِ التّعبير القرآنيّ إقـامـةُ الحـجَّـة بطريقة الإقرار

هذا السُّؤال سؤالُ تفهيم، وليس باستفهام عن جَهلٍ ليَعلَمَهُ، وهو يَخرُجُ مَخرَجَ الاستفهام، وإنَّما يُرادُ به النَّهيُ عن ذلك، ويُتهدَّد به، وقد علِمَ قائلُهُ أكان ذلك أم لم يكن، ويسمّيه أبو هلال تجاهلَ العارف، أو مزجَ الشَّكّ باليقين[1]، ووُجّه السُّؤالُ لغرض بلاغيّ، وهو التَّنبيهُ ورفع الهيبة[2]، والله ﷻ عالمٌ بأنَّ النَّبيَّ عيسى ﷺ بريءٌ، ولكنّ توجيهَ السُّؤال يكشفُ بعضَ الدَّلالات منها:

أوّلًا: التَّقريعُ والتَّهديد والتَّقريرُ الواقع على النّاس الذين اتّخذوهما إلهين من دون الله: فالغَرَض منه أن يقولَ ويقولون، ويسألُ ويجيبُ، فيكونَ تقريعُهم أشدَّ وأبلغَ حجّةً، وخجلُهم أشدَّ وأعظمَ، ويكونُ اختصاصُ ذلك لطفًا لمَن سمعه، وزجرًا لمَن اقتضى عليه، وهذا كما ادَّعت النَّصارى على عيسى ﷺ "فهذا ليس استفهامًا، وإن خرج مَخرَج الاستفهام، وإنَّما هو توبيخ لمَن ادَّعى ألوهيَّة عيسى؛ ليكون إنكارُه بعد السُّؤال أبلغَ في توبيخ الكَفرة، وأشدَّ في التَّقريع، أو لتعريفه أنَّ قومه غيَّروا بعده، وادَّعوا عليه ما لم يقله[3].

ثانيًا: التَّوبيخُ والتَّبكيتُ: أي: توبيخُ الكفرة وتبكيتُهم، ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهو توبيخ، ولم يقُل: (اتَّخذوني ومريم)، وإنَّما إطلاقهُ صِفةَ الأُمومة، كأنَّه قيل: أأنت قلتَ ما قلتَ مع كونك مولودًا وأُمّك والدة، والإله لا يَلد ولا يولد؟[4]، ومثاله: ما ورد عن ابن عبّاس ﷺ، في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التّكوير: 8 - 9]، أنّه قال: "إنّما

(1) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 387، والشّهريّ، الشّاهد الشّعريّ في تفسير القرآن الكريم، ص: 644.
(2) ابن حجّة، خزانة الأدب: 1/274.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/87، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/375، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/618.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/62.

تُسأل تبكيتًا لمَن فعل ذلك بها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، فجعل السّؤال منَ الله لعيسى ﷺ، أيضًا تبكيتًا لقومه المتطاولين[1]، وهو منَ التّوبيخ المقرِّع المُخْرس، وطرحُه بهذه الصّيغة أبلغُ وأوفى بالدّلالة.

ثالثًا: التَّعريفُ والتَّنبيه: أي: تعريف عيسى ﷺ وتنبيهُه؛ بأنَّ قومًا قدِ اعتقدوا فيه وفي أُمِّه، أنَّهما إلهان؛ لأنَّه يمكنُ أن يكون عيسى ﷺ لم يعرف ذلك إلّا في تلك الحال.

رابعًا: عمدةُ حجَّتهم بالألوهيَّة لعيسى ﷺ، ففي قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، عبَّر النَّظم القرآنيُّ عن مريم بالأُمومة؛ للدَّلالة على عمدة حجَّتهم في الألوهيَّة، وهو ولادته منها بغير أَبٍ، فالتَّعبيرُ به وأُمِّه أدلُّ وأبلغُ مِنَ التَّعبير بعيسى ومريم[2].

توالي إجابات عيسى ﷺ بجُمَل مفصولة:

مسؤوليّةُ الأنبياء عظيمة؛ لعِظَم المهمّةِ المُناطةِ بهم

يرى تمّامُ حسّان أنَّ الموقف، هو مَوقِف الفزَع، أو مُطلَق الانفعال، فالسُّؤال الإنكاريّ الَّذي ابتدأ بتحديد المسؤوليَّة الفرديَّة بقوله: ﴿ءَأَنتَ﴾، من شأنه أن يُفزع عيسى ﷺ، فكان جوابه بجُمل مُنفصلة، رُبِطت ربطًا معنويًّا، وهي: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، و﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، و﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾، و﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، و﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[3].

عِلَّةُ تقديم المسنَد إليه على الخبر الفِعليّ، في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾:

المسيحُ هو محورُ المساءلة، والعنصرُ الأساسُ لإبطال المزاعمِ الباطلةِ

لتقديم المسنَد إليه على الخبر الفعليّ، دلالةٌ على أنَّ الاستفهامَ مُتوجِّهٌ إلى تخصيص عيسى ﷺ بالخبر دون غيره، مع أنَّ الخبر

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/65.
(2) سمير داود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 55.
(3) تمّام حسّان، الخلاصة النّحويّة، ص: 19.

حاصلٌ لا محالة[1]، وإبرازُ المسنَد إليه باعتباره محورَ المساءلة، والعنصرَ المقصودَ بالتّهمة، والّذي من أجله كرّست الدّعايةُ، وألصق الإشهارُ بالوصف المندّدِ به بشخصه[2].

دِلَالَةُ لَامِ التَّعْرِيفِ فِي (النَّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾:

الإغْتِقَادُ الفَاسِدُ الرَّدِيءُ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

اللّامُ في (النّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ وهُم النّاسُ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِم عيسَى عليه السلام مِنْ بني إسرائيلَ.

ويَجوزُ أن يَكونَ لَفْظُ النّاس عامًّا مُسْتَعْمَلًا في الخُصوصِ؛ فيكونُ مجازًا مرسلًا، علاقَتُهُ العموميَّةُ، والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادَةُ توبيخِهِمْ وتقريعهم؛ لِكَوْنِهِم اعتقَدوا هذا الاعتقادَ الرَّديءَ وفيهِم الكِتابُ، فكأنَّه لا ناسَ إلّا هُمْ[3].

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾:

تَوبيخُ الكَفَرةِ الّذين اتّخذوا عيسى وأمَّه إلهين وتَبكيتُهم

قد يسأل سائلٌ: أنَّ النَّصارى لم يقولوا بإلهيَّة مريم، فكيف قال: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ ؟ والجواب: أنَّ النَّصارى لمّا ادَّعت في عيسى أنَّه إلهٌ، ورأوا أنَّ مريم ولدته لزمَهم بهذه المقالة على سبيل التَّبعيّة[4]، "فالاستفهامُ فيها يُراد به التّقريعُ والتّوبيخُ بغيرِ عيسى عليه السلام، وهم المتَّخذون له ولأمّه إلهين، دَخَل على المبتدأ، لهذا المعنى الذي تقدَّم؛ لأنّ الاتّخاذ قد وقع لابدّ، واللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ للتّبليغ فقط، و﴿ٱتَّخِذُونِي﴾، يجوز أن تكون بمعنى (صَيَّر) فتتعدَّى لاثنين، ثانيهما: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ ، وأن تكونَ المتعدّيةَ لواحدٍ فـ ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ حالٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/113.

(2) إنّ تقديمَ الاسم يقتضي تشبيهاً بما اقتضاه في الفعل الماضي، منَ الإقرار بأنّه الفاعلُ، أو الإنكار أن يكون هو الفاعل، فمثال الأوّل: قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: 99]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، فحكمُ المضارع في الآية الأولى حكمُ الماضي في الآية الثّانية. ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 117.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/363.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿مِن دُونِ﴾:

مَـنْ عَـبَـدَ اللـهَ تَـعَـالَى وَعَـبَـدَ غَـيْـرَهُ بِـمَـنْـزِلَـةِ مَـنْ لَـمْ يَـعْـبُـدِ اللـهَ سُـبْـحَـانَـهُ أَصْـلًا؛ لِـعَـدَمِ الِاعْتِدَادِ بِعِبَادَتِهِ الشِّرْكِيَّةِ

﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها التَّوكيدُ، ولفظُ (دون) مستعمَلٌ في الأَصْلِ للمكانِ المُجاوز، إلّا أنَّه يَرِدُ كثيرًا مرادًا به المكانُ المجازيُّ بمَعْنَى المغايَرةِ، فيكون مرادِفًا لـ (سِوَى)، والتَّقديرُ: (أَأَنت قلتَ للنّاسِ اتَّخذوني وأمّيَ إلَهَيْنِ سِوَى اللهِ تعالَى)، والمقصودُ: أَتُشْرِكونَ مع اللهِ سُبحانَهُ غيرَهُ في العبادَةِ، وليس المرادُ: أتعبدونَ معبودًا وتترُكونَ عبادَةَ اللهِ تعالَى[1].

لَكِنْ لَمّا كانَ حَقُّ اللهِ تَعالَى في العِبادَةِ لا يَنْبَغي أَن تَدْخُلَهُ الشَّرِكَةُ؛ جُعِلَ مَن عَبَدَ اللهَ تعالَى وعبَدَ غيرَهُ، كمَن لَمْ يَعْبُدِ اللهَ تعالَى أصلًا؛ لِعَدَمِ الاعتدادِ بعبادَتِه الشِّرْكيَّة.

إيثارُ إظهار اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

فَـضْـحُ شَـنَـاعَـةِ مَـا اتَّـخَـذَتْـهُ الـنَّـصَـارَى، مِن إِشْـرَاكٍ لِلـهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ

إيثارُ إظهارِ اسمِ الجلالة (اللهِ)، وكان المقامُ مقامَ إضمار، فيقال: (مِنْ دوني)؛ لبيانِ شناعة هذا الاتِّخاذ، والنّعيِ على قائليه بالحُمق والسَّفه[2]. والتَّعبير بالاتّخاذ يدلُّ على أنَّ الشَّيءَ المتَّخذَ ليس أهلًا لذلك[3]، فالمعبودُ أصلًا، والمُؤَلَّهُ حقًّا، هو اللهُ دون سواه، والمتّخَذُ إلهًا ليس له حقُّ العبادة، ولا قيّوميّةُ الألوهيّة، وإنّما صنعَته أوهامُ عابديه، ورفعَته إلى ذلك المقام العالي، ظنًّا منها أنّها بذلك تصنع منه إلهًا من دون اللهِ، ولهذا ورد التّشنيع بهذا الزّعم، وفضحُ ضلالته وبطلانه.

سقوطُ قرينة النّغمةِ لوضوح الكلام بدونها، وإغناء غيرها عنها:

قد تسقطُ قرينةُ النّغمة لوضوح الكلام بدونها، وذلك عند قراءة قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 6/288، و7/113.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(3) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 338.

في إدراك نظامِ تضافرِ القرائن، ما يفسِّر الكثيرَ مـنَ الـظّـواهـر اللّغويّة

دُونِ ٱللَّهِ﴾، فإنّك لو وقفت عند لفظ الجلالة، فإنّك لا تقف في التّلاوة بنغمة الاستفهام، ولكن بنغمة التّرتيل العاديّ، ولا يحصلُ استغرابٌ عند السّامع، كما لو سمع جملة "هل رأيتَ محمدًا؟ " بنغمة التّقرير الّتي في (قد رأيتُ محمدًا) مثلًا، وهو ما أكّده تمّام حسّان، في مَعرِض تحليله لتضافر القرائن، بقوله: "والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها، وفي إدراك هذه الحقيقة تفسيرٌ لكثير ممّا عدّه النّحاة مسموعًا يُحفَظ ولا يُقاس عليه، أو عَدّوهُ شاذًّا، أو قليلًا، أو نادرًا، أو خطأً، وكم أبدأ النّحاة وأعادوا في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ [طه: 63]، ونحن ندرك من فهمنا لظاهرة تضافر القرائن، وإغناء بعضها عن بعض، أنّ المنافسةَ الصّوتيّةَ دعَت إلى إهمال العلامة الإعرابيّة؛ لأنّ الرّتبة واقتران الخبر باللّام، أوضحا أنَّ لفظ ﴿هَٰذَانِ﴾ لا يمكن فيه إلّا أن يكون اسم إنّ، ولم يعُد للعلامة الإعرابيّة بعد ذلك منَ الأهمّيّة، ما يحتّم الاحتفاظ بها، ولا سيّما أمام إرادة المناسبة الصّوتيّة بين أصوات المتلازمين"[1].

دلالةُ الفَصْل بينَ قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾:

اخـتـلافُ طـرفي الإســنــاد ومـتـعـلّـقـاتِـه يُـوجِـب الفصلَ بين الجملتين

يرجع هذا الفصل إلى سببين، الأوّل: اعتبارُ الاستئناف البيانيّ فيها؛ لتنزيلها منزلةَ جوابٍ عن سؤال مقدَّر نشأ عمّا قبلها، وهذا هو الأظهرُ فيها عند المفسّرين، أو هو المتعيِّن، إذ لم يذكروا غيره، يعني: شبه كمال الاتّصال. الثّاني: كمال الانقطاع؛ لاختلاف طرفي الإسناد في الجملتين، واختلاف لواحق الإسناد، فالمسنَد إليه في الأولى هو الله ﷻ، والمسنَد إليه في الثّانية هو عيسى ﷺ، ومتعلّقاتُ الإسناد في الأولى اتّخاذُ غير الله إلهًا من دون الله، ومتعلّقاتُ

(1) تمام حسّان: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 240 - 338.

الإسناد في الثّانية تنزيهُ الله عن الشّريك والمماثل، فأنت ترى أنَّ كمالَ الانقطاع ملحوظٌ هنا، كما لُحِظ شبهُ كمال الاتّصال، فعلى أيّ الاعتبارين الفصلُ واجبٌ بين الجملتين[1].

فنُّ المذهبِ الكلاميّ[2] في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾:

قال ابنُ عاشور رحمه الله: "وقد أفاد الكلامُ تأكيدَ كون ذلك حقًّا له بطريق المذهب الكلاميّ؛ لأنّه نفى أن يُباح له أن يقول ما لا يحقّ له، فعلم أنّ ذلك ليس حقًّا له، وأنَّه لم يقله لأجل كونه كذلك، فهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة والتّفنُّن"[3]، وشبيهُه قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]؛ أي: (الفساد مُنتفٍ، فكذلك الإلهيّة مُنتفيةٌ)، وقولُه تعالى أيضًا: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]؛ أي: (الكوكب آفل، وربّي ليس بآفلٍ)، ينتج منَ الثّاني: الكوكب ليس بربّي[4]

الألوهيّة حقٌّ خاصّ لله تعالى، لا ينازعه فيها أحد

وقد حُذِفَت ألف (سبحان) هنا، وفي بقيَّة الآيات سوى ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّ المراد منَ التَّسبيح فيها أمرٌ ملكوتيٌّ، لا يدركه الحسُّ، وهو تنزيهُ الله تعالى عمّا يُشركون، وعمّا يصفون به الله ﷻ ممّا لا يليق به، وثبتَتِ الألف في المَوضِع الثّالث: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّه تسبيحٌ المقصودُ منه التَّعجّبُ من أمرٍ مُلكيٍّ خاصٍّ بالكفّار، وهو إصرارُهم على طلبهم إلى الرَّسول ﷺ أمورًا لا يقدر عليها إلّا الله[5].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.

(2) المذهب الكلاميّ: هو أن يأتي البليغ على صحّة دعواه، وإبطال دعوى خصمه بحجّة عقليّة قاطعة، تصحّ نسبتها إلى علم الكلام. السُّبكي، عروس الأفراح:/264، والإسفراييني، الأطول: 1/107، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 339.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/114.

(4) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 208.

(5) ابن البنّا، عنوان الدّليل من مرسوم خطّ التّنزيل، ص: 73.

فائدةُ التَّعبير بلفظ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

تـأدُّبُ الـرُّسـلِ عليهم السلام مـع ربِّـهـم ﷻ، دليلٌ على معرفتِهم به

سُبحانَ: مَصدَرٌ بمعنى التَّسبيحِ، وهو ممّا أُميت فِعلُه الَّذي هو سَبَحَ من حيث دلالتُه على التَّسبيح، بمعنى: التَّنزيه، فقد أُهملَتْ صيغة (فَعَلَ)، وحلَّ محلَّها صيغة (فعَّل) الدّالّةُ على التَّكثير، وهي أنسبُ في التَّعبير عنِ الدَّلالة هنا[1]، فضلًا عنِ المبالغة في التَّنزيه، واشتقاقِ المفردة منَ السَّبح؛ وهو الإبعاد في الأرض والذَّهاب، من جهة النَّقل إلى صيغة التَّفعيل والعُدول عنِ المصدر إلى الاسم الموضوع له، خاصَّة المشيرِ إلى الحقيقة الظّاهرة في الذِّهن، وإقامتِه مقام المصدر، مع الفعل ممّا لا يخفى[2].

ونضيف إلى أنّ منَ الدَّلالات السّياقيّة لهذه المفردة؛ هي التَّأدّبُ في الحوار، فمِن أدبِ العُبوديَّة أن يُسبِّح العَبد ربَّه، إذا سمع ما لا ينبغي أن يسمعَ فيه تعالى، أو ما يخطر بالبالِ تصوّرُ ذلك، وعليه جرى التَّأديب الإلهيّ في كلامه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: 116]، فعيسى عليه السلام، لمّا سمع ذِكر ما لا يليق نسبتُه إلى ساحة الجلال الإلهيّ، والعَظَمة الرّبّانيّة؛ وهو اتِّخاذُ النّاس إلهين من دون الله، شريكَيْن له سبحانه، بدأَ حوارُه بلفظةٍ تحمل دلالةَ الأدب الرَّفيع، والخُلُقِ العظيم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ ﴿يَكُونُ﴾:

وُجُـــوبُ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى تَجَنُّبِ المَقَالَاتِ البَاطِلَةِ وَالِاعْتِقَادَاتِ الفَاسِدَةِ

جاءَ النَّفْيُ بالفِعْلِ المضارِعِ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما كانَ لي أن أقولَ)؛ للإيماءِ إلى مَعْنَى الاسْتِمرارِ فيه، فأفادَ هذا أنَّ هذا القولَ لا يزالُ ممْنوعًا على تطاوُلِ السِّنينَ[3].

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/235 - 236، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 516، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/63.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/364.

دلالةُ التَّضمين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾:

نـأيُ عيسى عليه السلام عمَّا لا حقَّ له في اعتقاده أو قولِه

ذكر أبو البقاء: أنَّ ﴿مَا﴾ مفعول على تضمين ﴿أَقُولَ﴾ معنى (أدَّعي)، ومثله السَّمين الحلبيّ[1]، وقد تجيء هذه الصّيغة فيما لا ينبغي ولا يحسنُ مع إمكانه، ومنه قولُ الصّديق رضي الله عنه: "ما كان لابن أبي قحافة أن يصلّي بين يديّ رسول الله ﷺ"، ثمّ قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فوفّقَ الله عيسى عليه السلام لهذه الحجّة البالغة"[2]، وهذا الّذي نفاه السّياقُ على لسان عيسى عليه السلام، يؤكّد براءتَه ممّا قالوا، وانبتاتَه عمّا زعموا ظلمًا وزورًا.

بلاغةُ المجاز المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾:

براءة عيسى عليه السلام من فِرية النَّصارى

في قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ مجاز مُرسَل علاقتُه المسبّبيَّةُ، والأصلُ: ما يجوز لي، والجوازُ سببٌ في (الكون)، فنفى المُسبَّبَ وأراد السَّبَبَ، وهو أبلغُ في هذا المقام مِن نفي السَّبب، مسارعةً منه عليه السلام إلى نفي ما نُسب إليه منَ النَّصارى.

وجهُ إيثار ﴿لَيْسَ﴾ على الفعل المنفيّ:

ملمحيّةُ الاستئناف لنفي الاتّهام، وظهورِ دلالته، وتعظيمِ المُستحقِّ للمقام

في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، نجد "لفظ ﴿مَا﴾ عبارةً عنِ القولِ المذكورِ؛ أي: (ما يستقيم، وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحِقّ لي أن أقوله)، وإيثارُ ليس على الفعل المنفيِّ؛ لظهور دلالتِه على استمرار انتفاءِ الحقيّة، وإفادةِ التّأكيد بما في حيِّزه منَ الباء، فإنّ اسمَه ضميرُه العائدُ إلى ﴿مَا لَيْسَ﴾، وخبرَه ﴿بِحَقٍّ﴾، والجارّ والمجرور، فيما بينهما، للتّبيين، كما في:

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/471، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/512.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262. والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1201، 1204) مفرّقًا، ومسلم، الحديث رقم: (421)، وأبو داود، الحديث رقم: (940)، والنّسائيّ، الحديث رقم: (793) باختلاف يسير، وابن ماجه، الحديث رقم: (1035) مختصرًا، وأحمد، الحديث رقم: (22807).

(سُقياً لك) ونحوه"[1]، ويُلمحُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ للتّنزيه ومبيّن للمُنزَّه منه، وفي هذا بلاغةُ استيضاح، ويقينُ إيضاح.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ دون عبارة: (لم أقله):

اتِّساقُ التّركيب، وانسجامُه مع المعنى

عَدَل بالتَّعبير بالجملة الكريمة: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ عن قوله: (لم أقله)؛ وذلك للمُبالغة في التَّبرئة من ذلك؛ إذ نفى أن يوجد استحقاقٌ له به، أن يقول ذلك القولَ، وذلك أبلغُ، فنفى أنْ يُباح له أن يقول ما لا يحقُّ له، فلا يحقُّ له دعوةُ النّاس إلى عبادته، وظهر ذلك من خلال العُدول عنِ القول المباشر، والنَّفي بـ"ليس"، واقترانِ الخبر بالباء، وهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة، وأدَّتِ الأدواتُ النَّحويّة الكثيرَ منَ الاتِّساق والانسجام بين المعنى والتَّركيب.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿لِيٓ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾:

بُعْدُ عِيسَى عليه السلام عَنْ طَلَبِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؛ مُشْعِرٌ بِطَلَبِهِ مَا هُوَ حَقٌّ لَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بقولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما لَيْسَ بحقٍّ)؛ لكونِ الأوَّلِ أخصَّ، ونفيُ الأخصِّ لا يستَلْزِمُ نفيَ الأَعَمِّ، فكانَ لفظُ الآيةِ دالًّا على أنَّه يطلبُ ما هو حقٌّ لَهُ.

دِلَالَةُ البَاءِ فِي ﴿بِحَقّٖۚ﴾:

عِظَمُ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي أُلُوهِيَّتِهِ يُوجِبُ المُبَالَغَةَ فِي نَفْيِ جَمِيعِ مَا يُخِلُّ بِهَذَا الحَقِّ

الباءُ في ﴿بِحَقّٖۚ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾ صِلَةٌ[2] يُرادُ بها التَّوكيدُ، وأصلُ التَّركيب: ما لَيْسَ لي حَقًّا، والغرضُ مِنَ التَّوكيدِ المبالَغَةُ في نَفْيِ الإخلالِ بحقِّ الألوهيَّةِ عَنْهُ؛ لِعِظَمِ حقِّ اللهِ تعالَى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانُهُ: 3/52.

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

عُمُومُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِالظَّوَاهِرِ وَالخَفِيَّاتِ

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ عن قولِهِ سُبحانَهُ قَبْلُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾؛ لوقوعِه تَعْليلًا[1] بالأولويَّةِ والأَحْرَويَّةِ، وذلك أنَّه إذا كان اللهُ ﷻ يعْلَمُ ما في النَّفْسِ؛ فَعِلْمُهُ بالقَوْلِ أَوْلَى وأَحْرَى.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (النَّفْس) في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾:

دلالــةُ النَّـفس عــلى الأمـــور المغيّبة

المراد بقوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾: تعلَمُ ما عِندي ولا أعلَم ما عِندك، وتعلَمُ حقيقتي ولا أعلمُ حقيقتك، أو تعلَمُ مغيبي ولا أعلَمُ مَغيبك، فكان فحوى ذلك: تعلَمُ ما أعلَمُ ولا أعلَمُ ما تعلَمُ[2]، وهو من فصيح الكلام وبيِّنه[3].

وخصَّ النَّفس بالذِّكر؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الكتمِ، والانطواءِ على المعلومات[4].

وجهُ سَوقِ صور تعليلات عيسى عليه السلام:

ظـهـور عـبـوديّة المسيح لربّه، وبراءته من كلّ اتّهام، وطهارة باطنه وظاهره

قول عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾، فيه تقرير أنَّ اللهَ العليم، بما تكنّه الأنفس، وما تخفي الصّدور، يعلمُ براءةَ نفسِ عيسى وقلبِه، من كلّ شائبة تحول بينه وبين ربّه، وقد أورد الشّعراويّ ثلاث صور في هذه الآية: "الصّورة الأولى: هي قوله عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، والصّورة الثّانية: هي قول عيسى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾، والصّورة الثّالثة:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/223، والواحديّ، التّفسير البسيط: 7/601، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 5/540.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/115.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/263.

هي: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾"[1]، وهذه الدّلائل أوردها القرآنُ على لسان عيسى ﷺ؛ لتبرئة ساحته العقائديّةِ، ومشاعره الإيمانيّةِ، مِن أن تُزَنَّ بريبة، من هذا النّبيِّ المعصوم، الّذي هو روح الله، وكلمته.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾:

في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ طباقُ سَلْبٍ بين ﴿تَعۡلَمُ﴾ و﴿وَلَآ أَعۡلَمُ﴾، ونُكْتَتُهُ بيانُ شدَّةِ التَّمايُزِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في الأوصافِ كما أنَّ بينَهُما تمايُزًا في الذّاتِ.

التَّبَايُنُ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ ثَابِتٌ فِي الذَّاتِ وَفِي الصِّفَاتِ

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عن قولِهِ ﷺ قَبْلُ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾؛ لوقوعِه تَعْليلًا[2]، فهو تعليلٌ للتَّعْليلِ، وذلك أنَّ مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لمعرفَةِ الغيوبِ حَريٌّ أن يكونَ عالمًا بخبايا النُّفوسِ.

مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لِمَعْرِفَةِ الغُيُوبِ حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِخَبَايَا النُّفُوسِ

دلالةُ الفاصلة وبلاغتُها في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

أكّد اللّهُ علمه تعالى للغيب بأربعة مُؤكِّدات: بلفظ (إنَّ) المؤكّدة، وبضميرِ الفَصل ﴿أَنتَ﴾، بَينَ طَرَفَي الجُملةِ، وهذا يدُلُّ على الحَصرِ، يعني: (أنت لا غيرُك علّامُ الغيوبِ)[3]، وبصيغة المبالغة الَّتي تُعدُّ مُبالغةً بالنّسبة للعبيد، ولكنَّها حقيقةٌ فوق ما نتصوّر بالنِّسبة لله تعالى العليم الحكيم، وإنَّ هذا أقصى ما تتَّسع له لغتُنا القاصرةُ عن التَّعبير عن الحقائق الإلهيَّة.

إثْبَاتُ عِلْمِ الغَيْبِ للهِ ﷻ، تَتْوِيجٌ لِعِلْمِهِ بِتِلْكَ الغُيُوبِ المَذْكُورَةِ

وبجمع ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾، فلم يُفرِدِ الغيب، بل قال: الغيوب بكلِّ أنواعها؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3472.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.
(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة، ص: 2/548.

ما وقع في الماضي، وما يقع في المستقبل، وما يتعلَّق بالكائنات كلِّها[1]، والدّاعي البلاغيُّ لهذا التَّوكيدات: هو أنَّ مضمونَ الكلامِ حقيقةٌ عظيمةٌ؛ ومن حقِّ الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوبٍ فخمٍ عظيمٍ مثلِها.

وجهُ المبالغة في ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من (عَالِم) في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

أمّا صيغة المبالغة في اسم الفاعل ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من عالِم فللتّكافؤ مع كثرَة المعلوم؛ وهو ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾، وهذه هي المرّة الثّانية في سورة المائدة، تأتي فيها كلمة: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعًا للغيب، وفي كلتا المرَّتين، قوبل هذا الجمع ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ بصيغة المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾، أمّا إذا جاء الغيب مفردًا فإنّ القرآن يقابله بـ (عالِم) لا علّام، وذلك كثير في التّنزيل الحكيم، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجنّ: 26][2].

أنواع المشتقّات تتناسب مع السّياقات إفرادًا وجمعًا

نُكْتَةُ جَمْعِ الغُيُوبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

جُمِعَ الغَيْبُ علَى ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنواعِ الغيوبِ، ما كان مِنْها ماضيًا أو مستقبَلًا، وما تعلَّقَ بالحسّيّاتِ أو المعنويّاتِ، وما كان غَيْبًا في نفسِهِ أو غيبًا بالنِّسبةِ للبَشَرِ جميعًا أو لطوائفَ مِنْهُمْ؛ كلُّ هذا يَعْلَمُهُ الله تعالى، وفي هذا إشْعارٌ بعمومِ عِلْمِ الله ﷻ، وأنَّه لا تخْفَى عليه خافيةٌ[3].

الإشْعَارُ بِعُمُومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

مناسبة الفاصلة للسِّياق: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

جاءتِ الفاصلة تعليلًا لمضمون الجُمَلتين منطوقًا ومفهومًا، وهذا تقريرٌ وتأكيدٌ للجُملتَين: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وقوله: ﴿تَعْلَمُ

النَّص القرآنيّ نصٌّ متكاملٌ مؤتلفٌ، ولو كان من عند غير الله لاختلف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2408.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/277.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2408.

﴿مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ لأنَّ ما انطوَتْ عليه النُّفوسُ مِن جُملة الغيوبِ، ولأنَّ ما يَعلمُه علّامُ الغيوبِ، لا يَنتهي إليه عِلمُ أحدٍ[1].

المتشابه بين آيتي المائدة [110. 116]، من حيث الفصلُ والوصلُ، ومقولُ القول:

الآيتان هما قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: 110]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، والسّؤال المطروح في التّشابه: لمَ خُصَّت كلُّ آية بما فيها منَ الفَصل أو الوَصل، وبما فيها من مَقول القَول؟ والإجابة كالتّالي: الآية الأولى: يسبقها قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: 109]، فلمّا كان قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدلًا من قوله: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ ناسبه الفَصل، أمّا الآية الأخرى فيسبقُها: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: 110]؛ فلمّا أُريد مواصلةُ حوار الله مع عيسى، بذكر قولٍ آخرَ، والجمعُ بين القولين، ناسبَه الوصلُ بالواو، ولمّا خُتمَتِ الآيات قبل هذه الآية بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان أشدَّ مظاهر كفر النَّصارى بعد ذلك إشراكُهم باللّه، وأُريد توبيخهم على ذلك، وإقامةُ الحجَّة عليهم، ببيان براءة عيسى ﷺ مِن ذلك، ناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ الآية.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أخذ) و(اتَّخذ):

الأخذُ مصدر أخَذتُ بيدي، ويُستعار فيُقال: أخذَهُ بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذاب، وأصلُه في العربيَّة الجمعُ. والاتِّخاذُ أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرّ فيه، مثل: الدّار يتَّخذها مسكنًا، والدّابّة يتَّخذها قِعدة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميّةَ والحُكمَ[2]. ومنَ المعلوم أنَّ (أخذ) تدلُّ على فِعل الأخذ بكلِّ طواعيّة وحُبٍّ، وأنَّ (اتَّخذ) تدلُّ على الافتعال

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/693، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 100 - 101/3.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

والتَّكلّف، في أمور الحياة العامّة والخاصّة، وأمّا في العبادة باتّخاذ آلهة غيرِ الله، فهو محضُ التّمرّد على الخالق، والخروجِ عنِ الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها، وهذا ما عليه معنى الآية، فهو أمرٌ قائمٌ على التَّكلّفِ، ومخالفةِ المألوفِ الَّذي عليه النّاس، ممّا رضيه الله لعباده، من عبادته تعالى، وعدمِ الشِّرك به.

الأمّ والوالدة:

الأمّ هي: "الوالدة، والجميع: الأمّهات، ويقال: تأمّم فلان أمًّا؛ أي: اتّخذ لنفسه أمًّا. وتفسيرُ الأمِّ في كلّ معانيها: أمّة، لأنّ تأسيسه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصليّة، ولكنّ العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللَّبس"[1]. والأُمُّ تدلُّ على الأصل والرِّعاية، والحنان والرَّحمة، والأُمُّ تُطلَق على الوالدة القريبة الَّتي ولدت، والبعيدة الَّتي ولدت مَن ولدته؛ ولهذا قيل لحواء: هي أُمُّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط[2]، أمّا الوالدة فلا تُطلق إلّا على مَن ولدت، والرّضاعة تتعلَّق بها، قال تعالى: ﴿*وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: 233].

التَّسبيح والتَّقديس:

التَّسبيح: قول (سبحان الله)، وهو: "تنزيه لله عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف به، ونصبه في مَوضِع فعل على معنى: تسبيحًا لله، تريد: سبّحتُ تسبيحًا لله؛ أي: نزّهتُه تنزيهًا"[3]، والتَّسبيح: مُشتقٌّ منَ السَّبح، وهو المرُّ السَّريعُ في الماء أو في الهواء، فالمُسبِّحُ مُسرعٌ في تنزيه الله وتبرئتِه منَ السّوء، والتَّقديس: التَّطهير والتَّعظيم، ووَصْفُه بما يليق به من صفات الكمال، فيكونُ التَّسبيحُ نفيَ ما لا يليق، والتَّقديسُ إثباتَ ما يليق[4]، وقال بعضهم: "بين التّسبيح والتّقديس فرقٌ، وهو أنّ التّسبيحَ هو التّنزيه عنِ الشّرك والعجز والنّقص، والتّقديس هو التّنزيه عمّا ذكروه عنِ التّعلّق بالجسم، وقبول الانفعال، وشوائب الإمكان، وإمكان التّعدّد في ذاته وصفاته، وكونِ الشّيء من كمالاته بالقوّة"، والتّقديس أعمُّ، إذ كلُّ مُقدِّسٍ مُسَبِّحٌ من غير عكس"[5].

(1) الخليل، العين: 8/434.
(2) المناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(3) المناويّ، التّوقيف: 3/151.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 2/60، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 297، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/92.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»